من القاعدة البغدادية

إلى

صحيح البخاري

د. أورنك زيب الأعظمي

من القاعدة البغدادية

إلى صحيح البخاري

(سيرة ذاتية)

تأليف

القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري

نقلها إلى العربية

د. أورنك زيب الأعظمي

كلمة المترجم

حمدًا لله وصلاة وسلامًا على رسوله ومصطفاه، وبعد:

فكتابة السير الذاتية في اللغة الأردوية ليست بحديثة ولا بديعة؛ فقد سبق القاضي أطهر (1996م) كتاب وأدباء ألفوا سيرهم الذاتية، إما منثورة أو منظومة، وهذه السير متوفرة في السوق، إلا أن كتَّاب السير الذاتية من بين العلماء الهنود قلائل، ويمكن أن نعدهم على الأصابع، أبرزهم الأستاذ عبدالماجد الدريا بادي (1977م)، والشيخ زكريا الكاندهلوي (1982م)، والشيخ أبو الحسن الندوي (1999م)، والشيخ القاضي أطهر المباركبوري، والعالم الأخير ألف سيرته الذاتية في شكل كتابين، الأول "قاعده بغدادي سے صحيح بخاري تك" (من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري)، والثاني "كاروان حيات" (قافلة الحياة)، إلا أن الأول قد تم ونشر في حياته، بينما الثاني لم يكتب له الإتمام، فبقي غير تام ولا منشور، إنما نشرته أولًا مجلة "ضياء الإسلام" الشهرية الصادرة عن مدرسة شيخ الإسلام بشيخوبوره (بأعظم كره).

الكتاب الأول يقص حياته من الولادة إلى التخرج من المدرسة، ويكشف القناع عن الأطوار التي مر بها القاضي أطهر حتى أصبح كاتبًا قديرًا له سمعة دولية، بينما الثاني يذكر لنا أنشطته العلمية والعملية، وعلاقاته مع رجال العلم والفكر والحكم، ولو أن الكتاب الثاني مهم كتوءمه إلا أن الأول يقدم حجر الأساس الذي يقوم عليه هذا الصرح العظيم، الذي قال عنه الشيخ الألمعي السيد محمد بن نذير الطرازي المدني:

هو الحبرُ في الأنساب حافظُ عصرِه	سيوطيُّ أهل الهند، بل منه أغزر
أديبٌ فقيهٌ ناقدٌ متكلِّم	بليغ ولكِنْ لم تلده زمخشر

وقال عن باكورة أعماله بالعربية "رجال السند والهند":

وإن لم يكن إلا المؤلفُ وحدَه	كفاك وهذا منَّةٌ ليس تُنكَرُ

وعلى هذا فقد بادرنا بتعريب الكتاب الأول؛ كي يستفيد منه من يريد الخوض في هذا الغمار، أو يتشجع من يرجح المضي قدمًا في هذا الشأن؛ وذلك لأن القاضي أطهر المباركبوري قد ولد في قصبة صغيرة، فتعلم في مدرسة غير فخمة، وفوق ذلك قد أحاط به

أوضاع غير ملائمة، ولكنه، على الرغم من ذلك، لم تفتُرْ عزيمته، فتقدم وصبر، وصبر فتقدم، حتى أصبح مؤهلًا للقيام بأعمال جليلة، يعجز عنها المجمعات، وناهيك عن الأفراد بمستوى الشخص.

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعله حافزًا لكل من يحاول القيام بأي عمل علمي وأكاديمي، وبه التوفيق، وعليه التكلان.

د. أورنك زيب الأعظمي.

مقدمة الكاتب

نحمده ونصلي على رسوله الكريم، أما بعد:

فهذه قصتي للثقة بالنفس وال عصامية، كتبتها لأجل تشجيع وتحريض الطلاب الذين يتوجهون نحو المباني الفخمة لدور العلوم والجامعات بعقولهم الوقادة وأذهانهم الذكية؛ لكي يتعلموا تحت إشراف وعناية الشيوخ والأساتذة المهرة، متبعين مناهجها التعليمية والتربوية الجيدة، ولكنهم عادة ما يفشلون في أهدافهم، وأخيرًا يحصلون على شهادات عجزهم وذلِّهم؛ وذلك لأن مستوى التعليم والتربية قد أصبح فاسدًا، بل مميتًا للعلم وأصحابه، بسبب القائمين على هذه المدارس والمهتمين بها،وبالعكس من ذلك فالقائمون يتهمون الطلاب بكل ما حدث، ثم يتنفسون الصعداء، وإن حاول البعض منهم أن يتقدموا بأنفسهم فهؤلاء القائمون يفترون عزائمهم.

فليعتبر مثل هؤلاء الطلاب بطلاب المدارس الصغيرة كأمثالنا، وليجتهدوا لتحقيق آمانيهم الغالية السامية، لم أقصَّ زمن دراستي الابتدائية لإطراء نفسي، ولا لإعلاء ذكري، فلا يقرَأْها الطلاب الأعزة من وجهة النظر هذه، بل ليقرؤوها كي يتشجعوا بها على النمو والتقدم.

ولقد ألفت من قبلُ كتابًا باسم "تعليمي سرگرمياں عهد سلف ميں " (الأنشطة التعليمية في زمن السلف)، ولم يكن يهدف ذلك الكتاب سوى تشجيع الطلاب وتحريضهم، وهذه حلقة ثانية من تلك السلسلة الذهبية، وكذلك كتاب "علماء سلف" للشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني جيدٌ ومفيدٌ جدًّا، وهو من كتبي التي تحسن بها مستقبل حياتي، فليقرأه الطلاب كذلك.

القاضي أطهر المباركفوري.

1/ ربيع الأول 1407هـ - / نوفمبر 1986م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد وآله وأصحابه أجمعين.

نسبي ومولدي: ولدت في داري بمباركبور (Mubārakpūr) الساعة الخامسة صباح اليوم الرابع لشهر رجب سنة 1334هـ، المصادف لليوم السابع لشهر مايو سنة 1916م، وأما داري فهي الدار الرابعة الواقعة على الجانب المقابل للشارع شمال الدار المسكونة، والتي هي ملتقى لحي بوره صوفي (Purah Sūfī) وحي حيدر آباد (Hyderābād)، ثم انتقلنا إلى الدار الثالثة قبلها، والتي قد قضيت فيها طفولتي وشبابي وزمن دراستي، لقد خصصت لي الحجرة الخارجية، وكنت بكرة أولاد أبي، سماني جدي لأمي المرحوم أحمد حسين الرسولبوري (ت 26/ رجب 1359هـ) بـ: "عبدالحفيظ"، ولكني اشتهرت بـ: "القاضي أطهر المباركبوري" وكان أبي الشيخ الحاج محمد حسن بن الشيخ الحاج محمد بن الشيخ محمد رجب بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ إمام بخش بن الشيخ علي المتوفى 11/ ربيع الأول 1398هـ، وأما أمي فهي حميدة بنت الشيخ أحمد حسين بن الشيخ عبدالرحيم بن الشيخ جمال الدين المتوفاة في22/ ذي الحجة سنة 1352هـ، لقد ضبطت أخبار وتراجم آبائي الكرام من قبل جدي لأبي وجدي لأمي في كتاب "مآثر ومعارف" و"تذكرة علماء مباركفور".

كان جدي لأمي يدرس في تلك الفترة في دكا (Dhaka)، فبشره بمولدي ومولد خالي عبدالباري شيخ تلك المنطقة العارف بالله الشيخ الشاه عبدالله، كما دعا لنا بالخير.

لقد هاجر جدي الأعلى كڑا مانك بور (Kara Mānakpūr) إلى مباركبور مع الشيخ الراجه مبارك بن السيد أحمد بن الراجه السيد نور بن الراجه السيد حامد الجشتي المانكبوري (ت 2/ شوال 965هـ) زمن سلطنة السلطان نصير الدين همايون، ومنذ تلك الفترة نرث منصب نيابة القضاء أبًا عن جد، والذي نجد طابعه في كل صغير وكبير من العائلة، ونمارس الغيرة وعزة النفس وصدق القول والإباء إلى حد بعيد،وأتذكر حتى الآن أحداثًا ووقائع لبدء طفولتي أضرت بغيرتي وقد صقلت إبائي وأنفتي فيما بعد.

كانت عائلتي كبيرة للغاية؛ فكان لأبي ثلاثة أشقاء عبدالله وأسد الله ومحمد حسين، وكان أبي (محمد حسن) أصغرهم، وكنت بكرة أولاده،فكان كل فرد من العائلة يحبني ويلطف بي.

كنت أرافق أولاد حارتي في كافة أنواع اللعب، فكنت ألعب معهم، وكنت أصيد، وأتنزه، وأرتكب كل شقاوة تليق الطفل، إلا أني كنت أنهاهم عنها، فكانوا يلقبونني بـ: "المولوي" (الواعظ)، حتى دعاني بنفس الخطاب غيرهم من أولاد الحارة وكبارها، كنت مشغوفًا بصنع

اللعب، ومولعًا بصيد الطيور والأسماك، فكنت أطوف مع أبناء الأعمام في الحدائق والحقول والأرياف والأنهار خارج القصبة، كانت هذه الحال حتى الدراسة الابتدائية للفارسية والعربية، فكنت أمضي معظم فرصي في اللعب، وزدْ على تلك الجو العائلي الخالي من الأنشطة العلمية، فكان اثنان من إخوتي الأربعة لا يعرفان سوى القليل من القراءة والكتابة، وكانا يقضيان حياة متدينة، كنت صالحًا بسيطًا في الطفولة، ولقد ضعف بصري بسبب الرماد في العين، فكانت أمي تهتم بي، وكانت قلقة لحياتي المتأهلة إذا كبرت، وكانت تشاطر همها هذا مع الآخرين، كانت جدتي لأمي رحيمة بنت الحافظ الشاه نظام الدين السريانوي المتوفاة في26/ رمضان 1378هـ امرأة صالحة وعابدة، وقد أرضعتني، وكانت تحبني حبًّا جمًّا، وفي أغلب الأحيان كانت تدعوني إلى رسولبور (Rasūlpūr) في الصباح، وكانت ترجعني إلى مباركبور في المساء، وكان يقوم بهذه الخدمة من كان يتعلم عليها من طلاب مباركبور.

وُهِبْتُ ذاكرة قوية، فلم أنسَ حتى الآن أحداثًا وقعت حينما كنت ابن ستة أشهر أو سنة، فكانت أمي تتلو القرآن، وأنا في حضنها وأسمع ما كانت تتلوه، وكذا كانت هي تدرس أولاد وبنات الحارة؛ ولذا فقد نبتت فيَّ رغبة في العلوم الدينية منذ الطفولة، كما عثرت على أخبار ومعلومات عن الأنبياء، وخاتمهم، والصحابة وتابعيهم ومن تبعهم، وكنت أتصفح كتب أمي، وهكذا، فكان حضنها هو مدرستي الأولى، وأصبحت مواظبًا على الصلاة منذ أن بلغت عشر سنوات من عمري، فمضت طفولتي في رعاية والدتي وجدتي لأمي اللتين كانت نفسيتهما وبيئتهما علمية ودينية، يزينها تقوى الله وعبادتهما المخلصة، بينما كانت بيئة العائلة والحارة مختلفة تمامًا عنها، فقد ولدت في هاتين البيئتين المضادة بعضهما للبعض، وتأثرت بهما طفولتي، فما يوجد في نفسيتي من البرودة والحرارة يرجع سببه إلى هذا التضاد، والذي يبدو في بعض الأحيان حتى اليوم.

بداية التعليم المنظم: ولو أني جعلت أقرأ وأدرس قليلًا من لدن أمي وجدتي لأمي، ولكني ألحقت بكتاب الحارة للتعليم المنظم، والذي كانت تدرس فيه القاعدة البغدادية، والقرآن الكريم، ومبادئ اللغة الأردوية، ومبادئ الإسلام،كنت أدرس في الدار على والدي الكريمين، ثم ألحقت بمدرسة إحياء العلوم، وكنت آنذاك أقرأ الجزء الثالث من القرآن الكريم، الذي أنهيت قراءته على الحافظ علي حسن المرحوم، كما ذكرت، وبدأت أقرأ قليلًا من اللغة الأردوية قبل أن أدخل المدرسة، فتعلمت الأردوية بعدما أنهيت قراءة القرآن على المنشئ عبدالوحيد اللاهربوري الذي توطن مباركبور، ووقف حياته على التدريس في مدرسة إحياء

العلوم، وأما الحساب فقد تعلمته في هذه المدرسة على المنشئ أخلاق أحمد المتوفى 18/ ذي الحجة سنة1404هـ.

وفي تلك الفترة شغفتُ بجمع الأوراق الملونة، والخرائط، وأنواع من النقود، كما كنت أجمع علب الكبريت، وكنت أغرس شجيرات مختلف الأنواع والأزهار وبجانب الألعاب الأخرى رغبت في تربية الحمام، وبقيت أربيها لسنوات، الأمر الذي جعلني غائبًا عن المدرسة، فذات مرة ضربني أبي مبرحًا، وجرني إلى المدرسة، فقام عوجي، وجعلت أحضر المدرسة بصورة منظمة، وفي هذه الفترة تاقت نفسي لجمع الكتب الأردوية؛ فجعلت أبحث عنها، وأجمعها من هنا وهناك، وفي 1346هـ صدرت أول طبعة لكتاب "سبيل الآخرة" لجدي لأمي، والذي أثرت قراءته في، فخفت الموت والقبر والقيامة، ولم يزل خوفها في قلبي إلى هذه الأيام.

تعلمت الفارسية على الشيخ نعمة الله المباركبوري المتوفى 28/ربيع الثاني سنة 1362هـ، وعليه تعلمت جودة الخط الأردوي والعربي، وبالجملة فقد تعلمت بطريقة أو أخرى اللغة الأردوية والفارسية، وبلغت من العمر حوالي15 سنة، ثم شرعت في تعلم اللغة العربية.

فترة تعلمي للعربية تمتد على عشر سنوات من صفر1350هـ حتى شعبان 1359م، ولما بدأت أتعلم العربية كنت قد بلغت من العمر 14 أو 15 سنة، وهي فترة عنفوان الشباب، فتنشط كافة القوى العقلية، فإن كانت البيئة ملائمة فيصير الإنسان عاليًا رفيعًا، وإلا فيحرم كافة أنواع التقدم البشري، ولكن منهم من تفعل موهبته فعلَها، ولو أن الظروف لا توافقها، وأما أنا فأعتبر نفسي من بين هؤلاء السعداء حظًّا ونصيبًا.

وفاة الأم وبداية أنواع من البلاء: لقد نشأت في رغدة العيش ورخائه، إلى أن فرغت من تعلم الأردوية والفارسية، وكانت طبيعة والدتي علمية ودينية خالصة، ولقد عم الدار الخير والبركة للقناعة والبساطة، كما كانت تجارتنا نامية، توفيت أمي في 1352هـ حينما كنت أدرس "الكافية" وغيره من الكتب، فأنهك همها شبابي، وبقيت أحزن عليها لسنوات، وكدت أنسى نفسي بعد هذا الحادث؛ فكان أبي يغدو ويروح لأجل التجارة، وكنت أكبر أولاد أبي؛ ثلاثة ذكور وأنثى واحدة، فصعب علي أن أخرج لنيل العلوم، كما كانت شؤون العائلة الأخرى تعرقل السبيل، حتى جعلوا يتحدثون عن إيقاف دراستي، ولكني أبديت الصبر، فواصلت دراستي، كما انشغلت بالشؤون العديدة، وأنهيت دراساتي في مدرسة إحياء العلوم، ولم أخرج من القصبة سوى سنة واحدة للتخصص في الحديث من الجامعة القاسمية (مدرسة شاهي) في مراد آباد، وخلال هذه الفترة في1345هـ ذهبت إلى الجامعة القاسمية في غيا، ولكني رجعت منها بعد شهرين.

بيئتي العلمية: قضيت فترتي الدراسية كلها في مباركبور، وكان يتوفر فيها وفي ضواحيها علماء مهرة، وكتاب بارعون، ولعل كافتهم كانوا يخدمون العلم والدين في مختلف المواضع،فلم أبلغ من العمر ما أستفيد فيه من الآخرين، ولم أجد الفرصة لها إلا أنه قد قرأت أعمالهم من بعد، وسمعت عنها، فتشجعت على خدمة العلم، واستهديت منها.

وممن رأيتهم أو استفدت منهم:

- الشيخ عبدالعليم الرسولبوري (الشقيق الأكبر لجدي لأمي) المتوفى في1341هـ، رئيس المدرسين في مدرسة چشمه رحمت بغازيبور (Ghāzīpūr)، أتذكر صورته حتى الآن، كان عالمًا كبيرًا لعصره، ومفتيًا ومدرسًا، وطبيبًا مصنفًا.
- الشيخ عبدالسلام المباركبوري (ت 1343هـ) كاتب "سيرة البخاري"، ومدرس دار الحديث الرحمانية بدلهي، زرته مرة للمداواة بمرافقة أبي.
- شمس العلماء الشيخ مناظر حسن الفاروقي المباركبوري (ت 1347هـ) مدرس دكا، وأحب أصدقاء جدي لأمي،لم أوفق لزيارته.
- الشيخ عبدالحق الأملوي مترجم "تلبيس إبليس"، كان يقيم بصورة منتظمة بمدرسة ميان صاحب بدلهي، وتوفي بها، لم أوفق لزيارته كذلك.
- الشيخ محمد أحمد اللهراوي (ت 15/ شوال 1368هـ)، كان يبيض "تحفة الأحوذي" بجماعة من العلماء في تلك الفترة، كنت أزوره للمداواة، كما كنت أذهب إليه بدون مسوغ، سألني ذات مرة عن الكتب التي أدرسها، فذكرت له أسماءها، فقال: إنك متخلف للغاية في المنطق؛ فاجتهد فيه، ولما رأيت شغله العلمي والتأليفي تشجعت على الكتابة، ولقد سمعت بلسانه أول مرة المثل العربي السائر: "من تساوى يوماه فهو في الخسران"، فليكن اليوم القادم أفضل من الماضي،يهديني هذا المثل حتى الآن.
- الشيخ محمد شريف المصطفى آبادي (ت 2/ ذي الحجة 1372هـ) كاتب "الإفاضة القدسية في المباحث الحكمية"، و"نسيم الكلام في تأييد شريعة خير الأنام"، كان عالمًا فاقد النظير في المنطق والفلسفة وعلم الكلام، وتعلم عليه الأساتذة، وكان يمكث في الوطن، وهو من أخلص أصدقاء جدي لأمي، كنت أزوره، كما كان يشرف دارنا بزيارته، كانت جلساته علمية بحتة.

- جدي لأمي الشيخ أحمد حسين الرسولبوري (ت 26/ رجب 1359هـ) العالم المتبحر، والمعلم الكاتب، والطبيب الحاذق، كان أديبًا للعربية، وشاعرًا، له ديوان، كان يدرس في دكا، وكان يؤوب إلى الدار في العطلة، فكان يشتغل ليل نهار في قراءة الكتب وكتابتها، وصنع الأدوية، وغيرها من الأعمال،وفي أيامه الأخيرة لزم الدار لسنوات، فاغتنمت الفرصة لمشاهدة أشغاله العلمية، فاستضأت به كثيرًا،ولما توفي كنت في مراد آباد أتخصص في الحديث.

- خالي الشيخ محمد يحيى (ت 11/ صفر 1387)، كان ذكيًّا للغاية، وجامعًا للعلوم، فاستفدت منه كثيرًا، وصقل ذوقي العلمي،فكل ما امتلكته من التراث العلمي يرجع فضله إلى خؤولتي.

- الشيخ الحكيم محمد صابر (ت 8/ رجب 1399هـ)، كانت بين عائلته وخؤولتي علاقة علمية قديمة، فكنت أختلف إليه حين أيامي الدراسية الأولى، أشار علي بقراءة "وفيات الأعيان لابن خلكان"، ودلني على أهميته وجمعه للمعلومات، فاستفدت منه كثيرًا، وقد أخذت منه العديد من الكتب للقراءة، مما خلق فيَّ ذوق الأدب العربي من الشعر والنثر.

- الملا رحمت علي إسماعيل المباركبوري (ت 1944م) كان عالمًا متبحرًا من فرقة البوهرا، وقضى معظم أوقات حياته في مومباي،ولما اختلف عن الملا سيف الدين طاهر خرج من عنده بجماعة، ورفع القضية ضده، والتي تعرف بـ "قضية الغلة"،ولما فشل فيها، فتح له دكانًا لأسباب التجميل في مباركبور، كان الملا أديبًا جيدًا للعربية، وشاعرًا فحلًا، ألف عديدًا من الكتب الدينية، وسافر إلى مصر والشام وإيران والحجاز غير مرة، كنت أجلس في دكانه، وكانت أحاديثه علمية ودينية،وكان يعيرني كتب مذهبه الخطية لدراستها،ولقد قرأت "رسالة الغفران" للشاعر الفلسفي الشهير أبي العلاء المعري في تلك الفترة، وقد منحني إياها، ووعد أنه سيلحقني بالأزهر الشريف، ولكنه لم يستطع الذهاب إلى القاهرة، ولا أدخلني الأزهر الشريف، استفدت منه في الأدب العربي، ووقفت بفضله على التعاليم الخفية لفرقة البوهرا.

الاختلاف إلى دار المصنفين بأعظم كره: في تلك الفترة كان علماء بارزون شتى في دار المصنفين بأعظم كره مشغولون بالكتابة والتحقيق، كانت دار المصنفين مركزًا للسياسة على مستوى المحافظة بفضل الشيخ مسعود علي، وكنت أتردد إليها بمرافقة أصحابي، وكان السيد سليمان الندوي يتوقف قليلًا حينما كان يرانا، وكان يسأل عن أحوالنا، وفي بعض الأحيان كان يزور بنفسه مدرسة إحياء العلوم، ولكني لم أتمكن من الاستفادة منه أو من دار

المصنفين، والواقع أن دار المصنفين كـ: "شجرة ممنوعة" في حق الآخرين، إلا أني استفدت كثيرًا من إصداراتها وترجمانها العلمي مجلة "معارف"، وقد صقلت ذوقي التأليفي.

بيئة المدرسة وأساتذتها: هذه كانت بيئتي العلمية المحدودة التي قضيت فيها عشر سنوات لدراستي، فتعلمت على أساتذة وعلماء الديار، ولم أخرج منها بسبب الظروف الاقتصادية والعائلية، كانت مباركبور، في تلك الفترة، ساحة النزاعات والصراعات بين الشيعة والسنيين، وبين أهل السنة والديوبنديين، فكان مبارز كل فرقة أو مذهب وكأنه يخرج إلى الساحة فيبارز، وكانت عامة هذه الديار تدعو علماءها من الخارج فتكفر من خالفها، أو تلحد من لم يتبع مذهبها، وكانت الخطب والمناظرات تجري لأشهر، وهي تنتهي إلى الخصام والقتال، ومن ثم إلى المحاكمة، وكانت العامة والخاصة كلتاهما تعتبر قضاء الوقت فيها وضياع مواهبها وصرف أموالها جزءًا من واجبات الدين وأعمال الخير، ولأجل العصبية الفرقية كانت الأحاديث الفردية تتحول إلى قضية سياسية، كان مركز حزب الديوبنديين مدرسة إحياء العلوم، وعلاوة على تلك كانت جلسات جمعية العلماء وحزب المؤتمر والحركات والأنشطة السياسية والدينية على مستوى الوطن والأحوال الطارئة كانت تخلق ظروفًا مثيرة ومهيجة، وكنا نحن الطلاب نحضرها، وكانت عملية التعلم والتعليم تبدو صعبة في هذه الفوضى، وكانت تفقد الظروف الهادئة المطمئنة التي يتطلبها هذه العملية، ولكن من العجب أن هذا العهد هو العهد الزاهر لمدرسة إحياء العلوم، فما كان هذا البهاء ولا كانت هذه البركة في المدرسة لا من قبلُ ولا من بعدُ؛ فقد طار صيت تعليمها وتربيتها في الآفاق، وكان كل طالب من هذه المدرسة يحاول التقدم، وأن يصبح شخصية يشار إليها بالبنان، كان هذا كله من فضل إخلاص وأثرة أساتذة القصبة، الذين كانوا منقطعين إلى التعليم والتدريس، صابرين ومقتنعين براتب قليل، مبلغه من عشر روبيات إلى عشرين روبية، بعيدين عن الرغبة في المال ومتاع الحياة الدنيا، وكانوا يلقون من عشرة إلى اثني عشر درسًا يوميًّا، وليس هذا فقط، بل كانوا يدعون الطلبة إلى بيوتهم خارج الدوام، فيعلمونهم ما يفيد مستقبلهم، ويربونهم ما يزكي أنفسهم، كانوا يجهدون أنفسهم، ثم يشجعون الطلاب على الاجتهاد والكد والجد،وكانوا حريصين على أن يتعلم تلامذتهم، فكانت علاقة الأستاذ مع تلميذه علاقة قريب مع قريبه، بل صديق مع صديقه.

أساتذة مدرسة إحياء العلوم: أول أستاذ تلمذت عليه من بين أساتذة المدرسة هو الشيخ المفتي محمد يسين المباركبوري (ت 22/ محرم 1404هـ)، فقد درست عليه معظم الكتب، ولقد استفضت من بساطته وصلاحه وخلوصه ولطفه بي، وأما المنطق والفلسفة فقرأت الجزء

الكبير منهما على الشيخ شكر الله المباركبوري (ت 5/ ربيع الأول 1361هـ)، وأنا تلميذه الأخير الذي علمه بكل رغبة ونشاط، وله سهم أكبر في تشجيعي وتربيتي النفسية،وكذا قرأت بعض كتب المنطق على الشيخ بشير أحمد المباركبوري (ت 3/ شوال 1404هـ)، وقرأت تفسير الجلالين على الشيخ محمد عمر المظاهري المباركبوري، وهكذا مارست العروض والقوافي لدن خالي الشيخ محمد يحيى الرسولبوري (ت 11/ صفر 1387هـ)، كما قرأت عليه بعض دروس الهيئة، وله دور كبير وجليل في تربيتي؛ فكان يوفر لي كتب العربية النادرة للقراءة، وليس من بين أساتذتي من كان أديبًا وشاعرًا وكاتبًا سواه، وكل ما نلته اليوم يرجع فضله إليه، فهذه نتيجة إخلاصه وجهدي الشخصي.

أساتذة الجامعة القاسمية (الشاهية) بمراد آباد: ومن أساتذة الجامعة القاسمية بمراد آباد الذين تعلمت عليهم الشيخ فخر الدين أحمد (ت1392هـ)، الذي قرأت عليه صحيح البخاري وسنن ابن ماجه وسنن أبي داود، والسيد محمد ميان (ت16/ شوال 1395هـ)، الذي قرأت عليه سنن الترمذي، والشيخ محمد إسماعيل السنبهلي (ت 1395هـ) الذي قرأت عليه صحيح مسلم، وخلال هذه الفترة أقمت بالجامعة القاسمية لشهرين، فدرست الباب الأول من ديوان الحماسة، ومقامات الزمخشري، وقام بالتدريس السيد محمد ميان، كان السيد المرحوم أديب العربية، وكاتب الأردوية، وصاحب طبيعة دينية خالصة، فاستفدت كثيرًا من إخلاصه ومحبته وتشجيعه.

تأسيس جمعية الطلبة: وفي نفس الفترة أقيمت جمعية الطلبة بمدرسة إحياء العلوم لتربية الطلاب الفكرية والنفسية، وتوسيع نطاق معلوماتهم، ولهذا الغرض أقيمت مكتبة عظيمة فخمة، جمع فيها الآلاف من الكتب الموثوق بها من كل علم وفن، لا سيما التاريخ والأدب، وتم جلب العديد من الجرائد والصحف السياسية والدينية والأدبية والعلمية التي كان يستفيد منها الطلاب، ولعل كل كتاب في تلك الفترة أنهيت قراءته، وكذا كان الطلاب يمارسون الخطابة في كل جمعة، وأصدرت مجلة شهرية باسم "الإحياء" من جمعية الطلبة كنت مدير تحريرها، كان الشيخ شكر الله مدير المدرسة ومحركها، وكان يعتني بتعليم وتربية الطلاب عناية بالغة، وكان يود أن يخلق فيهم عزة النفس والغيرة وعلو الهمة وعظمة الخلق واليد الطولى في العلوم، فكان يحاول أن يتقدم طلابه في كل فرع من فروع العلم.

لم تكن تساعدني وسائلي الضيقة وأوضاعي الخاصة أن ألتحق بالمدارس العليا؛ فقد نزعت من فرصي سنة خرجت فيها عن الديار، ولكن علو الهمة والهيام بنيل العلوم قد جنني أن ألتحق بالأزهر الشريف لنيل الدراسات العليا حتى لم تزل هذه الأمنية من صدري بعد أن

كبرتُ، ولكني قد حولت الخيبة إلى النجاح بفضل رغبتي واجتهادي، بأن جعلت بيتي ومدرستي الأزهر الشريف وجامع الزيتونة وجامع قرطبة والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وحصلت على ما لن ألتقسب معتكفًا في الديار، وهذا كله بفضل الله ومحبة الأساتذة وجهدي وعزمي، ولقد جننت في تلك الفترة جنونًا وهمت هيامًا؛ فكنت أتخيل دائمًا دور العلم الإسلامية القديمة الشهيرة من بغداد وبخارى والأندلس وغرناطة وأساتذتها وطلابها، وكنت أستفيض من حسناتهم وبركاتهم.

وإذا وافق جهدَ الدارس الجهيد وسعيَه المضني همةُ التقدم والرغبةُ فيه والنشاطُ له فيمكن أن يكون عظيمًا وهو في مكان ضيق حقير، وإذا لم توجد فيه هذه الصفات فلن يعظم ولو هو في مكان واسع كبير، ما مسني أي معهد علمي وتحقيقي وتربوي كبير، ولا اهتديت من شخصية كبرى، وزد عليها عدم مساعدة أوضاعي الداخلية، ولكني مع ذلك مطمئن بأني قد حصلت بفضل رغبتي وجهدي وعلو همتي وصنع نفسي على كل ما يمكن الحصول عليه في المعاهد العلمية الكبرى وتحت إشراف الشخصيات العملاقة، وكان من الممكن أن تحرم شجيرة شخصيتي، كما يحدث عادة، النموَ والنشأة في ظلال شخصية كبرى أو معهد علمي كبير، ولم توفق النمو الحر والإثمار في جو تحيط به هذه القيود.

فائدة المنهاج الدراسي النظامي: لا شك أن المنهاج الدراسي النظامي مفيد ونافع جدًّا، ولو أنه مر بكثير من التهذيب، فلقد وضع العديد من المدارس منهاجًا دراسيًّا خاصًّا بها، ولكنها لم تخلق علماء ينافسون خريجي المنهاج الدراسي النظامي فيقوموا بكتابة مؤلفات ورسائل كمثلهم، ولهم فكرة جامعة ونظرة ثاقبة في العلوم والفنون الدينية، إني لا أخالف التغيير في المنهاج الدراسي، فلنقم بالتغيير فيه طبقًا للظروف والمتطلبات، ولكن لنقدم الإلمام التام بالعلم والفن والعقيدة الثابتة والعمل عليها على ما سواها؛ لأن هذا هو الهدف وراء قيام المدارس الدينية، فهي قائمة عليه، وساعية له، ولقد درست حسب هذا المنهاج، وكل ما حصلت عليه راجعٌ فضلُه إليه.

بركة المواظبة على المطالعة: كنت أعتقد أن التعليم العربي صعب، فكنت أغيب عن المدرسة كثيرًا، وكان وراء غيابي هذا إهمالي عن الدراسة، وقصري في الفهم، وعجز طريقة التعليم، وهذه كلها تجمعت في حتى لم أحضر المدرسة لعدة أشهر، والحال أني قد أنست إلى العربية منذ طفولتي؛ إذ كنت أطالع القرآن الكريم بترجمته الأردوية كل يوم، وكنت أتفكر في المعاني الأردوية لكلمات القرآن في ضوء الترجمة، ولما فرغت من قراءة "ميزان" و"منشعب" و"علم الصيغة" و"نحو مير" جعلت أفهم خطبة الجمعة، وقمت بتمرين كثير لقواعد اللغة العربية،

وكنت أقرأ "علم الصيغة" و"نحو مير" حينًا بعد حين،وكذا حفظت عن ظهر القلب "خواص الأبواب" لـ "فصول أكبري"، وأحفظ القضايا النحوية لهذه الكتب إلى اليوم كما كانت من قبل، وأستفيد منها في حياتي الحاضرة، ولما قرأت، فيما بعد، عشر مقامات من "مقامات الحريري" بحاشية الشيخ محمد إدريس نمى فيَّ الذوق الصحيح للعربية وآدابها، وتبصرت في مبادئها وما يتعلق بها من مثل اللغة والاشتقاق والأبواب والصلات والنحو والصرف والخواص وغيرها، مما سهل لي فهم الكتب الدراسية وغير الدراسية، ونمت في الثقة بالنفس، مما قوى همتي وعزيمتي، لم يكن يدرسنا الأساتذة بدون مطالعة، فكان من الضروري للطلاب ألا يحضروا الفصل إلا بعد أن يقرؤوا الدرس القادم، ويحاولوا حل معضلاته، وفهم معانيه، وهم أيضًا كانوا يطالعون في الليل، فكنا نطالع الكتب الأربعة الدراسية ليلًا بكل اجتهاد، وكنا نفوض المعضلة إلى الأستاذ إذا لم يمكنا حلها، وهكذا فلما أصبحنا قادرين على الدراسة أنهيت دراسة "منية المصلي" و"نور الإيضاح" و"القدوري" و"كنز الدقائق" و"شرح الوقاية" في سنة واحدة فقط، وكنت أقرأ حتى ست صفحات من "شرح الوقاية" في يوم واحد، وكذا بدأت دراسة "تاريخ الخلفاء" في تلك الأيام، ولكني تركته بعدما قرأت بعض الدروس؛ لأنه لم يكن من الكتب الدراسية، بل كان مما تجب مطالعته فحسب وقد حدث أني كنت أقول بعد قراءة العبارة: إني قد فهمتها، فكان الأستاذ يتقدم في التدريس، هذا كله كان بفضل قوة مطالعتي التي أوجدها حفظ قواعد اللغة وممارستها والاجتهاد في الأدب العربي،ولقد أجهدت نفسي لها منذ البداية، ولكني مع ذلك لم أنبذ الكلمات السيئة عن الأساتذة، وما انتقدتهم قط، وإن حدث شيء من هذا النوع فقد عوقبت على ذلك والواقع أني استفدت منهم كثيرًا.

وهكذا كنت أدرس بعض الكتب في زمن الدراسة، وكان الطلاب يدرسون بكل رغبة ونشاط، وكان منهم من كان زميلي في الدرس، وكانوا يجبرونني على التدريس إذا لم أرد تدريسهم، حتى كان يقع بيننا النزاع في هذه القضية، وهكذا فقد كنت أدرِّس كما كنت أدرُس، وهذا قد أفادني كثيرًا، وكنت أحمل كل وقت كتابًا من غير المقررات الدراسية، وعندما كنت أفرغ من قراءة الدرس وتكراره كنت أنشغل بدراسته، وما أعجب تغيير مدارسنا العربية وما أكثر حزنًا انحطاطها العلمي أن الطلاب كأمثالنا كانوا غير جديرين وموهوبين لدى الأساتذة قبل اليوم بأربعين سنة أو أكثر، فكان الأساتذة يلوموننا بأننا لا نعرف شيئًا، وأننا لا نليق بأن نجالس العلماء، ونضيع أوقاتنا في رحاب هذه المدرسة، وأما نحن فكنا نقول لهم بأسلوب صبياني في بعض الأحايين: "إنكم ستذكروننا فيما بعد"، وصدق ما ظننا، إذا وُلِدت في الدارس قوةُ المطالعة شعر في داخله بالشرح والسرور بالقراءة، وبلغت رغبتي في قراءة الكتب غير

الدراسية حد الجنون، فلم أكن أجتهد في قراءة الكتب الدراسية سوى لأنجح في الاختبار بدرجة جيدة، فلم أحاول ولو مرة أن أكون "ممتازًا" أو "جيدًا جدًّا"، ولكني نجحت في كل مرة "جيدًا جدًّا"، وبلغت في بعض الأحايين درجة "ممتاز"، وبالعكس من ذلك فقد كنت مشغوفًا بقراءة الكتب غير الدراسية، فكنت أحمل كل آن كتابًا من غير المقررات الدراسية، حتى كنت أنظر إلى الكتاب وأنا أتناول الطعام، وكنت أدرس الكتب غير الدراسية لساعات بالليل بعدما أفرغ من قراءة الكتب الدراسية، وكنت أعتكف على الكتاب أمام مصباح الغاز في ليالي الصيف، وربما كانوا يجبرونني على القيام عنه، والحال أن بصري كان ضعيفًا منذ طفولتي، فقد جعلت أضع النظارة فور ما بدأت أدرس العربية، فكان بعض الأساتذة يقول - للطفه بي -: "لا تقرأ هذا القدر فتعمى"، فكنت أجيب عليه: "إذا عميت فسيتوقف العمل"، وبسبب كثرة المطالعة والتصفح كانت عيناي تحرقان في بعض الأحيان، وكانت الحبوب تظهر فيهما، وكنت أعاني من الدوخة التي كانت تسبب نوعًا من الإغماء لوقت غير قصير.

وربما كنت أدافع عن الإمام الشافعي في الفقه، وكان الأستاذ يحاول أن يقنعني، وكنت أتفكر دائمًا لم لا تدرس كتب أئمة الأحناف المتأخرين، لا سيما علماء ما وراء النهر، ومن أين يمكن لي الحصول على أمهات كتب القدماء التي تحتوي على الروح الصافية للفقه الحنفي، واستخرجت الفروع من الأحاديث والآثار؟ وعلى هذا فقد رغبت شديدًا في الكتب النادرة لأئمة الأحناف الصادرة عن إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد، فجمعتها، وقمت باستعراضها بكل حرية ورحابة صدر، فقد كان الشيخ أبو الوفاء الأفغاني (ت 13/ رجب 1395هـ) رئيس لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد حنفيًّا متشددًا، فبحث عن هذه الكتب، ونشرها بتعليقه عليها، ثم قال لي بعد وقت طويل: إني أود أن أحرق كتب علماء ما وراء النهر هذه؛ وذلك لأن تداولها بين الناس قد قلل وجود كتب أئمة الأحناف، كأمثال الإمام أبي حنيفة، والإمام محمد، والإمام أبي يوسف وغيرهم، حتى ضاع العديد منها، فصرفوا النظر عنها، وجعلوا كتب المتأخرين مصدرًا ومأخذًا للفقه الحنفي، وبسبب دراسة إصدارات إحياء المعارف النعمانية وحجة الله البالغة نمى فيَّ ذوق القضايا الفقهية في ضوء الأحاديث والآثار.

وكذا يخطر ببالي كثيرًا أن القرآن والحديث اللذين هما مأخذا الدين جُعِلا على الدرجة الثالثة في المنهاج الدراسي النظامي، ويتم تدريسهما بصورة عابرة أو نظرة سارحة، وعلى هذا فقد اشتريت المشكاة وتفسير الجلالين وتفسير ابن كثير، وكنت أدرسها كما كنت أدرس موطأ الإمام مالك وموطأ الإمام محمد.

الكتب الموجهة التي درستها: لقد تعرفت على الأعمال العلمية للسلف أولًا بـ: "مسدس حالي" و"علماء سلف"، ثم بفهرست ابن النديم ووفيات الأعيان، ورغبت في تقليدها وتتبعها بعدما قرأت أخبارهم وسيرهم. وفي تلك الفترة سافر خالي الشيخ محمد يحيى بعد الفراغ من نيل العلوم والفنون إلى دار المبلغين بلكناؤ التي أقيمت حديثًا، وكان يرسل إلي كتب الشيخ عبدالشكور أو يأتيني بها، وأما أنا فكنت أقرؤها باهتمام ورغبة، وكذا أخذت منه الكتب الأخرى في رد التشيع، وقد توفر لي عدد ملموس من مثل هذه الكتب، ثم اختير (خالي) مدرسًا في مدرسة چشمه رحمت بغازيبور، فكان يحمل لي كتبًا من مكتبتها، وبعدما أنهي قراءتها كان يرجع بها. فالكتب التي قرأتها بوسيلته والتي تذكرت أسماءها منها: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر، ودلائل النبوة للأصبهاني، وسبحة المرجان في آثار هندوستان لغلام علي آزاد البلغرامي، وآكام المرجان في أحكام الجان لأبي بكر شبلي البغدادي، وحياة الحيوان للدميري، والصواعق المحرقة لابن حجر المكي، والعمدة في الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، والمحاسن والأضداد للجاحظ، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والميزان الكبرى للشعراني وغيرها.

وكذا أخذت فقرأت من لدن الشيخ الحكيم صابر خان الكتب التالية: فقه اللغة للثعالبي، وأمثال العرب للضبي، ونقد الشعر لابن قدامة، وكتاب الصناعتين للعسكري.

وقرأت ما يلي من الكتب مستعيرًا من مكتبة مدرسة إحياء العلوم: سيرة ابن هشام، ووفاء الوفاء للمسعودي، والمستطرف، وديوان الفرزدق، وهكذا استفدت مما يلي من الكتب بطريقة أو أخرى: وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني، والعِقد الفريد لابن عبدربه، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وتهذيب التهذيب، وتوالي التأسيس، وغيرها.

هذه علاوة على الكتب التي كنت أشتريها، وكنت مشغولًا بقراءتها وسأقدم فهرستها فيما بعد، وكذا قرأت كل ما في مكتبة جمعية الطلبة من الكتب، قليلها أو كثيرها، واستفدت منها، وحينما ظفرت بكتاب جديد كنت أنقطع إلى دراسته، وبجانب قراءة هذه الكتب كنت أجمع المختار منها، وأكتب المقالات، والحال أني لم أقدر على فهمها تمامًا حتى تلك الفترة، بل البعض منها كان فوق مستوى فهمي، ولم أستطع سوى استيعاب القليل منه، ولكن كلما فهمت قويت همتي العلمية، ورغبت في المزيد من المطالعة والقراءة.

المناظرة والمناقشة: وفي تلك الفترة كنت أناظر البعثة النصرانية في السوق كل ثلاثاء خطابًا وكتابًا، وفي هذا الشأن أمعنت النظر في التوراة والإنجيل والكتب في رد النصارى.

وبسبب كثرة المطالعة وقراءة الكتب ازدادت معلوماتي كثيرًا؛ ولذا امتزت عن طلبة المدرسة في الخطابة، وكنت ألقي الخطاب قبل الأساتذة في الجلسات المنعقدة في القصبة أو خارجها.

الشعر: نمى في ذوق الشعر منذ الطفولة، وجعلت أقرض الشعر الجيد بدون إصلاح الآخرين، كانت قصائدي ومنظوماتي تنشد في الجلسات الدينية والسياسية والعلمية، كما جعلت تنشر، ووافقه كتابة المقالات، وهي أيضًا بدون إصلاح من الآخرين، وهي بدورها جعلت تنشر في الجرائد والمجلات.

وبالجملة فقد كدت أن أبلغ ذروة الشهرة في كثرة المطالعة والاطلاع الواسع وكتابة المقالات وذوق التأليف والشعر والمناظرة والخطابة، وانفتحت لي أبواب المواهب، وجعلت أشعر بجودة الطبع والنشاط العلمي في كل مجال من مجالات العلم والفن، ونمت في الثقة بالنفس، فبلغت الغاية التي أردتها، وكان أساتذتي مسرورين بهذا كله، وكانوا يشجعونني كثيرًا، والواقع أنما حصلت عليه يرجع فضله إلى إخلاص أساتذتي ومحبتهم وتعليمهم وتربيتهم، فكانوا يجتهدون بأنفسهم، كما كانوا يطلبون من تلامذتهم أن يجتهدوا، وكانوا يبخعون أنفسهم بعيدين عن الثروة والجاه على أن يصبح تلامذتهم مثقفين.

شراء الإصدارات وجمع المخطوطات: ومنذ أن بدأت أدرس اللغة الأردوية رغبت في جمع الكتب، فكنت أستعير الكتب من زملائي، كما كنت أشتريها بنفسي، وكذا جمعت خرائط الأماكن المقدسة وغيرها مما كنت أعثر عليها في هذه القصبة الصغيرة في صندوق صغير من خشب جاءت به أمي من رسولبور، وكنت أقلبها وأرتبها من جديد بعد يومين أو ثلاثة، فكانت هذه أول مكتبتي أو متحفي الإسلامي، ولما جعلت أتعلم العربية ازداد ذوقي لقراءة الكتب، فكنت آخذ الكتب الدراسية من مكتبة جدي لأمي، مما شوقني لجمع الكتب، ثم اشتريت ميزان ومنشعب وعلم الصيغة والكافية والمرقاة وكفاية المتحفظ وكنز الدقائق وديوان المتنبي ومقامات الحريري، كما اشتريت من كتب الأردوية تواريخ حبيب إله، والكلام المبين، وحدائق البيان، والفاروق، وكانت تأتيني مجلة "مولوي" من دلهي بصورة مستقلة، ولقد قمت بتجليدها وجمعها لدي.

ولما عرفت قدرًا من العربية ورغبت في قراءة الكتب غير الدراسية للعربية جعلت أبحث عنها هنا وهناك، وشرعت في قراءتها، وفي تلك الفترة طلب خالي المرحوم محمد يحيى فهرس إصدارات مصر وفهرس كتب المكتبة الرشيدية بدلهي من عبدالصمد وأولاده تجار الكتب بسيدواره (سورت) على عنواني، ثم طلبتهما لي، وبعد فترة طلبت فهرس إصدارات أبناء المولوي محمد غلام رسول السورتي تجار الكتب بومبائ والمكتبة العربية الكبرى بومبائ، ولقد نشرت فهارس

الإصدارات كلها سوى المكتبة الرشيدية بدلهي باللغة العربية من مصر، ولقد صين البعض منها حتى الآن في مكتبتي، كانت هذه الفهارس تفصل أسماء الكتب وأسماء مؤلفيها وأنسابهم وسنين وفاتهم وأجزاء الكتب وأسعارها، كما كانت تعرف ببعض الكتب.فكانت هذه الفهارس تبدو موسوعة علمية للإصدارات العربية ومؤلفيها، فقد حصلت بها على المعلومات الوافرة عن مؤلفات السلف وإصدارات مصر والشام، واهتدى بها ذوقي العلمي، فكنت أقرؤها مرارًا، وأراجعها، ثم كنت أختار منها حسب ذوقي وسعتي، فكان قلبي يود أن أشتري كل ما ذكر فيها، ولكن ظروفي الاقتصادية كانت تحول دون ذلك، فبدأت أشتغل بمهنة التجليد، فجمعت كل أسبابه وآلاته، وجعلت أقوم بتجليد الكتب؛ كنت أحمل الأسباب من أعظم كره حيث كنت أذهب إليها راجلًا وأعود إلى الدار بعد شرائها حتى الظهر، فكنت أقطع 12 ميلًا في ساعات معدودة، كل ما كنت أكتسب من التجليد أجمعه لشراء الكتب، ولقد اتخذت حيلة أخرى، بأني جعلت أشتري الكتب من المكتبة الرشيدية بدلهي بسعر التجار، فكنت أنال ترخيص أربع آنات (قروش) في روبية على الكتب العامة، وآنتين في الكتب المصرية، وأما نسخ القرآن الكريم وأجزاؤه فكنت أنال ترخيصات أكبر عليها؛ فكنت أشتري نسخ القرآن الكريم والكتب الأخرى على طلب من طلاب المدرسة وأهالي القصبة، وأبيعها لهم على السعر المذكور في الفهرس، وما بقي لي من فوائد الترخيص بعد أجرة البضائع كنت أحتفظ بها، وعندما كنت أشتري الكتب فكنت أشتري كتابًا يوافق ذوقي حسبما انتفعت، وهكذا فكان يبلغني شهريًّا طردان أو ثلاثة عن طريق البريد أو القطار بما فيها كتاب يختص بي، وفي بعض الأحيان لم أقدر على جمع المبلغ المطلوب فلم أتمكن من شراء الكتاب الموافق لذوقي لشهور عديدة، وهكذا فقد توفرت لي ذخيرة ملموسة من أمهات الكتب العربية النادرة، وإصدارات مصر والشام وبيروت طوال عشر سنوات لدراستي، وقد بلغ بي الانتظار والاضطراب لهذه الكتب إلى أني كنت أرى في المنام الكتب التي كانت تبلغني في الصباح، فكنت أقصد مكتب البريد أو محطة القطار فآتي بالطرد، كان ذلك اليوم بالنسبة لي يوم العيد، فكنت أقرأ الكتاب لأيام وأقلبه، وكنت أصلي ركعتين شكرًا لله، ولقد صليت شكرًا لكل كتاب بلغني في تلك الأيام، بل لم تنقطع هذه السلسلة لسنوات بعدها، ثم كنت أبادر بتجليده حسب ذوقي، وفي بعض الأحيان حينما لم يرضني الجلد كنت أفكه ثم أقوم بتجليد جديد، فكتبُ تلك الفترة كلها مجلدة بيدي هاتين، ثم كنت أبحث عن أخبار وترجمة الكاتب وأضبطها، وكنت أغلف الكتاب، وحتى الآن ستجد كل كتاب لي مغلفًا بالورق، كما قد ضبط عليه قيمته وتاريخ شرائه.

شراء بعض الكتب المهمة مع ذكر قيمتها وسنة شرائها: فيما يلي فهرس الكتب العربية غير الدراسية مع قيمتها وتاريخ شرائها، وهي ستخبر القراء كيف تطورتُ علمًا وعقلًا حسب السنوات، وماذا كانت أسعار الكتب في تلك الأزمنة، وماذا أصبحت الآن:

1. مختار الصحاح للرازي: اشتريته بروبية هندية واحدة في شعبان سنة 1353هـ، هذا أول كتاب بلغني مما بلغني من إصدارات مصر،كان الشيخ شكر الله قد طلب ميزان الاعتدال وتذكرة الموضوعات والمستطرف من أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي بمومباى، فوصل إلي هذا الكتاب مع تلك الكتب، ثم اشتراه العديد من الطلاب بواسطتي.

2. أدب الكاتب لابن قتيبة: اشتريته بروبيتين.

3. كتاب الأضداد في اللغة لابن بشار الأنباري: اشتريته بروبية هندية واحدة، بلغني هذان الكتابان في شهر رمضان سنة 1353هـ من قبل عبدالصمد وأولاده تجار الكتب في سورت.

4. كتاب المعارف لابن قتيبة: اشتريته بروبية هندية واحدة ونصف روبية في شهر رجب سنة 1354هـ.

5. ديوان النابغة الذبياني: اشتريته بعشر آنات هندية.

6. ديوان زهير بن أبي سلمى بشرح الأعلم الشنتمري: اشتريته بخمس آنات هندية.

7. العلم الخفاق في علم الاشتقاق للنواب صديق حسن خان: اشتريته بست آنات.

8. ديوان الخنساء مع ديوان حاتم الطائي: اشتريته بثماني آنات تقريبًا.

بلغتني هذه الكتب الأربعة في شوال1354هـ من المكتبة العربية الكبرى بمومباى.

9. مقدمة ابن خلدون: اشتريتها بروبية هندية واحدة وأربع آنات، أعطاني المفتي محمد يسين روبية واحدة كجائزة على نجاحي بالمركز الأول في الامتحان السنوي لمقامات الحريري لـ: 1354هـ، فأضفت إليها أربع آنات واشتريت بها هذه المقدمة.

10. دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني: اشتريته بروبيتين هنديتين تقريبًا.

11. العمدة في الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني في مجلدين: اشتريته بروبيتين هنديتين.

بلغني هذان الكتابان من المكتبة الرشيدية بدلهي في صفر1355هـ.

12. الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدِّينَوري: اشتريته بروبية هندية ونصف.

13. طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي: اشتريته بروبية هندية وخمس آنات.

بلغني هذان الكتابان من المكتبة العربية الكبرى بمومبائي في16/ ربيع الثاني سنة1355هـ.

14. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني في ثمانية مجلدات: اشتريته بعشر روبيات، جاءني هذا الكتاب من المكتبة الرشيدية بدلهي في شهر رمضان سنة 1355هـ، كان سعره الحقيقي 12 روبية هندية، وبلغ السعر عشر روبيات ونصفًا بعد تخفيض آنتين على روبية، ولكن جزءًا من صفحات المجلد الثامن الخالية قد ضاع، فخفص السعر إلى عشر روبيات، ولقد قمت بتجليد المجلدات الثمانية وحدانًا، ثم كسرت التجليد، فازدوجت مجلدين في جزء.

15. فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري: اشتريته بروبية و 14 آنة، وبلغني في شوال 1355هـ.

16. كتاب الفهرست لابن النديم: اشتريته بثلاث روبيات عن طريق بعض أصدقائي من أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي بمومباءئ في26/ رجب سنة1356هـ.

17. شرح نزهة النظر لابن حجر العسقلاني: اشتريته بثلاث آنات ونصف.

18. زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم في أربعة مجلدات: اشتريته بأربع روبيات.

19. ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي بشرح التبريزي الموجز في مجلدين: اشتريته بروبيتين.

بلغتني هذه الكتب الثلاثة من المكتبة الرشيدية بدلهي في شهر رجب1356هـ.

20. الكامل في اللغة والأدب للمبرد في مجلدين: اشتريته بثلاث روبيات ونصف.

21. فقه اللغة وسر العربية للثعالبي: اشتريته بروبية وثماني آنات.

بلغني هذان الكتابان من المكتبة الرشيدية بدلهي في شهر رمضان1356هـ.

22. مشكاة المصابيح (طبعة أصح المطابع بدلهي): اشتريته بروبيتين وتسع آنات، وبلغني في 17/ شوال1356هـ.

23. ديوان مجنون: اشتريته بثلاث آنات، وبلغني في ذي الحجة1356هـ.

24. تفسير ابن كثير في أربعة مجلدات: اشتريته بعشر روبيات، وبلغني في 12/ ربيع الأول 1357هـ.

25. صحيح البخاري بحاشية السندي في مجلدين: اشتريته بروبية 14 آنة، وبلغني في 15/ رجب 1357هـ، ثم طلبه العديد من الطلاب بواسطتي.

26. إحياء العلوم للغزالي في أربعة مجلدات: في حواشيه كتاب المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار للعراقي، وكتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء لعبدالقادر العلوي، وكتاب الإملاء عن إشكالات الإحياء للغزالي، وعوارف المعارف للسهروردي، اشتريته بأربع روبيات، وبلغني في 16/ شوال 1357هـ.

27. تذكرة الحفاظ للذهبي في أربعة مجلدات: اشتريته بعشر روبيات ونصف، وبلغني في 4/ ذي الحجة 1357هـ.

28. كتاب الخراج للإمام القاضي أبي يوسف: اشتريته بروبيتين ونصف، وبلغني في 24/ ربيع الآخر 1358هـ.

29. تفسير الجلالين مع أسباب النزول في مجلدين: اشتريته بروبية واحدة.

30. الإمامة والسياسة لابن قتيبة: اشتريته بروبية ونصف.

لم أكتب تاريخ شرائهما، وبلغتني هذه الكتب من المكتبة الرشيدية بدلهي.

31. سنن ابن ماجه.

32. سنن النسائي.

33. سنن الترمذي.

كانت هذه الكتب قديمة، فاشتريتها بثمن رخيص من دارس في مراد آباد في 1369هـ.

هذه 33 كتابًا في 58 مجلدًا، والتي ميزانيتها حوالي 70 روبية في ذلك العهد، وهي اليوم تعادل آلافًا من الروبيات، لقد اشتريت هذه الكتب بقروش جمعتها بصعوبة في حين كانت يدي ضيقة، وكان قد أحاط بي البؤس والشقاء.

وفي نفس الفترة التي كنت أدرس فيها اللغة الأردوية شغفت حبًّا بجمع النقود النادرة وغيرها من العجائب، وكنت أبحث في تلك الفترة عن كتب خطية ونادرة، وقد كان بلغني أنه كانت في عائلتي كتب خطية لا تحصى، ثم ألقيت تلك المخطوطات في كيس كبير في بئر، وقد بقي حتى زمن أبي مصحف نسخه جدي الأكبر، ولكنه قد ضاع قبل أن أولد وأبلغ الحلم، إلا أني وجدت مجموعة خطب قديمة يوجد في نهايتها الخطبة الثانية للجمعة وخطبة العيدين مما قد كتبها هو، وفي نهايتها ضبطت السنة 1297هـ، خطها عربي جيد، وهي محفوظة لدي إلى

الآن، وقد بقيت في عائلتي شهادات لنيابة القضاء قد حفظتها بعدما ألصقت الأوراق في ظهرها، ولكنها أيضًا قد ضاعت بأيدي أفراد عائلتي الجهلاء، إلا أني قد نقلتها في تلك الفترة، ثم نشرتها في كتابي "مآثر ومعارف"، فلم يبقَ سوى شهادة، وكذا عثرت في تلك الفترة على نسخ خطية لـ: "قصة شاه جمجمه"، و"الله خدائي"، فحفظتها إلى اليوم.

وكان أحد شيوخ الحي الحاج ولي الله تاجر كتب بازار يعرض كتبه على صُفة "قدم رسول" يومًا في الأسبوع، فكنت أزوره، وأقرأ الكتب، فلما شهد ولعي بالكتب أعطاني نسخة خطية نادرة لـ: "تفسير مرتضوي"، هذا تفسير منظوم لبعض السور للشيخ غلام المرتضى بن الشيخ تيمور الحنفي الإله آبادي المعروف بجنوب، والتي كتبت عام 1198هـ، وربما توجد نسخة أو نسختان لهذا التفسير في الهند، فكتبت في نهايته بقلمي ما يلي: 'اين نسخه قديمه متبركه در مبارك پور يکے از تاجران کتب که پير کهن سال بود، نامش حاجي ولي الله بود ودر ديار عرب يک زمانه فروکش مانده بود مرا بطور هديه در 1354هـ عنايت فرمود، وبعد چند سال انتقال کرد، نزد من يک اول منظوم تفسير است که بزبان اردو مسلسل گفته شد، والله أعلم بالصواب، وأنا العبد الأفقر القاضي عبدالحفيظ أطهر المباركپوري، غفر له ولمتعلقه أجمعين"[1].

ولقد اشتريت كتيبًا خطيًّا جميلًا من أحد تجار القصبة بست آنات، ضبط فيه أسماء شهداء بدر وأُحُد بخط جميل بالعربية، جدولها وما بين الأسطر مذهب، فكتبت في طرف منه ما يلي: "ملكت هذا الكتاب المبارك بالبيع الشرعي يوم الخميس 29/ شوال 1357هـ وأنا القاضي أبو المعالي عبدالحفيظ المباركفوري، بخواب اندر متعلق اين نسخه مباركه مرا بشارت شده بود"[2].

والكتب التي كانت توافق ذوقي، ولم أقدر على شرائها، كنت أنقلها، وكنت أعتني بذلك كثيرًا؛ فكنت أقوم بتسطير الأوراق السميكة، وأشتري القلم الجيد، وأصنع المداد الذي لا يزول، وكنت أضبط اليوم والوقت والسنة في نهاية كل كتاب، ومما يجدر بالذكر بعض الكتب التي نسختها:

---

[1] ترجمة: أهدى إليّ هذه النسخة المباركة الحاج ولي الله أحد تجار مباركبور العجائز، والذي أقام بالعالم العربي لمدة في 1354هـ، ثم توفي بعد ذلك بسنوات، هذا أول تفسير أردوي منظوم للقرآن لديّ، والله أعلم بالصواب.

[2] ترجمة: لقد بشّرت بهذه النسخة في المنام.

1. كتاب النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 384هـ)، هذا الكتاب في 32 صفحة، ونسخ في 12/ صفر 1354هـ، قدمت للكتاب، وذكرت ترجمة الكاتب في نهاية الكتاب بالعربية.

2. كتاب الألفاظ المترادفة لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني: هذا الكتاب في 16 صفحة، ونسخ في 14/ جمادى الثانية 1354هـ، قدمت له بالعربية، حيث ذكرت ما هو المترادف، وما هي أسبابه، آخذًا من مختلف الكتب.

3. ديوان امرئ القيس: نقلت أبيات امرئ القيس من شرح ديوان امرئ القيس المطبوع، ثم زدتها آخذًا من مختار الصحاح وغيره من الكتب، هذا الديوان في 33 صفحة، ذكرت في بدايته ترجمة الشاعر في خمس صفحات،نسخته في شهر رمضان1354هـ.

4. مختصر الجرجاني في أصول الحديث للعلامة مير سيد شريف علي بن محمد بن علي الجرجاني: هذه الرسالة في 16 صفحة، وتم نسخها عصر الاثنين العاشر من شهر صفر 1355هـ.

5. ديوان الفرزدق: هذه النسخة أعددتها من ديوانه المطبوع من بيروتفي بدايتها ذكرت ترجمة الشاعر بالعربية، ثم جاء الديوان كله 114 صفحة، تم نسخ الديوان ضحى الجمعة السادس عشر من جمادى الثانية1355هـ.

6. أنباء الأذكياء في حيات الأنبياء للإمام السيوطي: هذه النسخة نقلتها من نسختها المنشورة، هي في14 صفحة، وتم نسخها في7/ ربيع الأول1358هـ.

7. كتاب الدرات للأصمعي: هذا كتاب موجز للغاية، ونشر من بيروت مع بعض الرسائل، تنتهي على 83 درة، ثم تأتي رسالتان للحريري "سينية" و"شينية"، وهي في 12 صفحة، وتم نسخها في20/ صفر 1355هـ.

8. العروض والقوافي: هذه الرسالة نشرت من بيروت فنقلتها، وقرأتها على الخال محمد يحيى في ثلاث جلسات.

9. نقلت سيرة النبي بكاملها من الاستيعاب.

10. فقه اللغة: نقلت الفصل الأول منه والفوائد اللغوية والأدبية وتاريخ الأدب العربي والمختار من الأبيات والألغاز آخذًا من فقه اللغة وغيره من كتب اللغة والأدب.

وكذا نقلت قصص العلماء وأخبارهم في مذكرة على شكل كتاب صغير، وهي موجودة إلى الآن، ولم تنقطع سلسلة الأخذ والجمع من الكتب العربية طوال زمن دراستي، وهكذا فقد كتبت المئات من الصفحات.

وبالجملة فقد كان توفر لي مكتبة غنية للمخطوط والمطبوع من الكتب خلال فترتي الدراسية، وهي كانت تحتوي على المصادر الأولوية والمراجع القيمة، وكنت أقضي جل نهاري فيها، ثم أبيت بين ظهرانيها، فكنت أضعها في رف بصورة منظمة، ولم أكن أدع أي كتاب بدون ترتيب، وكنت أضع الأوراق البيضاء في بداية الكتاب حين تجليده، وكنت أعتني بذلك، وأكتب فيها الفوائد والمعاني المفيدة للكتاب آخذًا من الكتب الأخرى، وكذا كنت أصون الكتب من تكديرها، وكنت حذرًا للغاية في تناولها، وأما أصدقائي وزملائي فلم تكن لهم أي رغبة في هذه الكتب "غير المفيدة". فلم أضطر إلى الضن بكتبي هذه "القيمة" ولم أكن أخاف ضياعها، ولأجل رغبتي في الكتب فقد توفرت لي مكتبة ثرية لأمهات الكتب، جمع فيها ذخيرة عظيمة للمخطوطات والمنشورات العربية، ضاقت الحجرة عن سعتها.

كتابة المقالات وتأليف الكتب: كانت مكتبة جدي لأمي الشيخ أحمد حسين الرسولبوري عظيمة جدًّا، وكانت تحتوي على ثلاثة رفوف كبرى، منها مطبوعات ومنشورات العربية والفارسية والأردوية بترتيب جميل، كان جدي لأمي يرجع من دكا في العطلة، وكان يشتغل ليل نهار بقراءة الكتب وتأليفها وصنع الأدوية، فكانت الكتب تلقى على الحصير، وكان يقتبس ويأخذ منها، وأما أنا فكنت أرى شغله العلمي، ولكن لم أجرؤ على التقرب منه، فإن غادر المكان كنت أقلب أوراقه ثم أتركها كما هي، وفي بعض الأحيان كان يشعر بذلك، فكان يسأل: من جاء هنا؟، وعندما يسمع اسمي يسكت ولا يقول شيئًا.

كان جدي لأمي يقيم خارج الديار لأجل التدريس، كما كان يفعل خالي لأجل الدراسة، فإن وفقت للذهاب إلى رسولبور حين غيابه كنت أقرأ الكتب من مكتبته، ثم أعيدها في نفس المكان وفي نفس الحال، وكان معظم الكتب يعلق عليها جدي ويضع الحواشي، حتى إن بعض الكتب كان يكتب في بدايتها صفحات عديدة، فكنت أمعن النظر فيها والحال أني كنت عاجزًا عن فهمها، ولكني وفقت ذوق الأخذ والاقتباس من هنا، فجعلت أنقل ما تركه حسب مستطاعي زمن دراستي للأردوية، ولما دخلت في الصفوف العربية، ورغبت في قراءة الكتب ومطالعتها فاستضأت من هذا النور، فملت إلى كتابة المقالات وتأليف الكتب.

لم يعطَ أساتذة ومسؤولو مدرسة إحياء العلوم ذوقًا للكتابة والتأليف، فذات مرة طلبت منظمة "بزم أحباب حيدر آباد" (منظمة رفقاء حيدر آباد) من طلاب المدرسة مقالة في سير

الأئمة الأربعة، فقد أجهد الأساتذة أنفسهم، وكابدوا الصعوبة في ترتيبها، ومن ثم شعروا بخلق ذوق الكتابة في الطلاب وبقيام المنظمة لهم باسم "جمعية الطلبة"، واشتروا الكتب المستندة من مختلف العلوم والفنون، لا سيما التاريخ والأدب، واشتريت الجرائد والمجلات العلمية والأدبية والدينية، وأصدرت مجلة خطية شهرية باسم "الإحياء" التي لم تتقدم وراء بعض الأعداد، ولقد انتفعت كثيرًا من هذه الكتب والرسائل، لا سيما كتب دار المصنفين، وندوة المصنفين، والجامعة الملية الإسلامية، ودار التراجم، ومجلات "معارف" و"برهان" و"جامعة"، إن هذه الكتب كانت تحمل هوامش وإحالات، فهي التي دلتني على مصادر العربية ومراجعها الأولوية، فتاقت نفسي في الانتفاع المباشر منها، فاشتريت العديد من كتب التاريخ والطبقات.

ولما قدرت على الكتابة والتأليف نقلت أخبارًا موجزة لسير وتراجم الخلفاء الأربعة والأئمة الأربعة من كتب أمي الحنون، وجمعتها في كراسة صغيرة طبق ذوقي آنذاك، وقمت بتجليده بالسلك، وجعلت له لوحًا فوقه أحمر وأسفله أسود، كان هذا أول أثر من ذوقي التأليفي والكتابي، فلما دخلت في الصف الثاني أو الثالث الأردوي جعلت كراسة صغيرة مجلدة لذكر المعاني الصعبة للكلمات، وكذا جمعت أبيات المديح النبوي في كراسة صغيرة للغاية في تلك الفترة، ثم قمت بتجليدها الجميل، وذوق تأليفي في الطفولة هو الذي تسبب في تأليف الكتاب.

بداية كتابة المقالات: لما بدأت أدرس العربية نمى في ذوق كتابة المقالة بجانب القريض، وبدأت أفكر في كيفية نشرها في الجرائد والمجلات، فأول ما نشر اسمي بشأن لغز هو في مجلة "پيام تعليم" الصادرة عن الجامعة الملية الإسلامية بدلهي، ولما بلغ الخبر الشيخ شكر الله دعاني وهنأني به، ثم نشرت مقالة موجزة لي في "أخبار الجمعية" بدلهي بعنوان "واردها كي خطرناك تعليمي اسكيم" (مشروع واردها التعليمي الخطر)، ثم نشرت لي مقالة في صفحة واحدة في موضوع "مساوات" (المساواة) في مجلة "مؤمن" ببدايون في 1353هـ، وتعتبر أولى مقالاتي، ثم نشرت لي مقالة أخرى في صفحتين فيها بعنوان "رها دين باقي نه إيمان باقي" (ما بقي الدين ولا تبوأ الإيمان)، وفي نفس الفترة نشرت لي مقالة بعنوان "بلاكشان إسلام" (من امتُحِن إسلامه) في صحيفة "العدل" الأسبوعية بغوجرانواله (بنجاب)، ولقد نشر المدير هذه المقالة في مكان الافتتاحية، وبعدما نشرت هذه المقالات جن جنوني بكتابة المقالات، بحيث نظمت لها، فاشتريت من السوق طاولة بروبية وآنتين، كما اشتريت مقعدًا بست آنات، وصنعت مقلمةً كبيرةً وجميلةً، ثم طليتها باللون الأسود، وكتبت على ظهرها بالأحرف العربية البيضاء "علم بالقلم"، ثم أعددت مدادًا أحمر وآخر أسود، واشتريت أقلامًا من أنواع عديدة، ثم وضعت

على الطاولة الكواغذ والأقلام بترتيب جميل، وشرعت في قراءة الكتب وكتابة المقالات وقول الشعر، لم يهدني في الشعر سوى ذوقي، فشجعني الاعتماد على النفس، فلم يهدني أحدٌ إلى توفير المعلومات وتنوع الأساليب؛ فكنت أكتب المقالة مرارًا وتكرارًا ثم أشطبها، وهي لا توافق ذوقي إلا بعد جهد جهيد، وكذلك كنت أتفكر في قبولها للنشر أو ردها، ولكنها حينما تنشر بدون تغيير كبير، فكنت أتشجع من جديد، وأقعد لإعداد مقالة أخرى.

الشيخ سيد محمد ميان ومجلته "قائد": وفي هذه الأثناء (1357هـ) جاء الشيخ سيد محمد ميان المرحوم من مدرسة شاهي بمراد آباد ليترأس الجلسة السنوية لجمعية الطلبة عندنا، والشيخ محمد ميان هو الذي قد أصدر مجلة "قائد" من مدرسته، فأنشد له صديقي الشيخ عثمان بعض أبياتي التي نشرها الشيخ في مجلته لطفًا بي، وأكد على أن أكتب لها المقالات، وهكذا فقد جعل الشيخ المرحوم ينشر مقالاتي وقصائدي في مجلته، وأصبحت من مساهميها المنتظمين، فتحقق أملي، وهمت غرامًا بالكتابة، وكنت أعد المقالات تترى؛ أوفر لها الكتب، وأهذب المقالات، وأقوم بإصلاحها بنفسي، وحينما أتم مقالة كنت أرسلها بدون تأخير، وكان الشيخ ينظر في هذه المقالات فيجعلها تبلغ المستوى العالي، ويشجعني في رسائله إلي، كتب إلي ذات مرة مخاطبًا إياي بـ: "الشيخ القاضي عبدالحفيظ أطهر المباركفوري المتخرج من دار العلوم بديوبند": "مقالاتك تبلغ المستوى العالي، ولا أطريك مخافة أن تعتبر المجلة أدنى من أن تنشر فيها مقالاتك"، فرددت عليه بكل احترام وتكريم: "إني أدرس في مدرسة إحياء العلوم، وأقرأ "الهداية" وما شابهها من الكتب"، ثم ارتحلت إلى الجامعة القاسمية وتلمذت عليه، وكانت مقالاتي تنشر في مجلة "قائد" ما دامت المجلة تصدر، ذات مرة سألت الشيخ المرحوم كتاب الخراج للإمام أبي يوسف، فأعطانيه الشيخ ملاطفًا علي، فغلفته بكاغذ جيد، وكتبتُ اسم الكتاب وصاحبه بالأحرف الضخمة الجميلة، فلما رجعت الكتاب إليه أخذه وقال: ظننت أنك ألفت هذا الكتاب، فقلت له أن يدعو الله لي،فلما نشر كتابي "رجال السند والهند"، وأرسلته إلى الشيخ المرحوم كتبت مشيرًا إلى ذلك الحادث في زمن الدراسة: "هذه بركة دعائكم، وفضل عنايتكم أني حريت أن أؤلف الكتاب"، والواقع أن الشيخ المرحوم هو أول من أحسن إلي، ورباني في هذا الأمر،فإن لم يلتفت إلي، ولم ينشر مقالاتي في مجلته، عسى أن لم أكن قادرًا على التأليف والكتابة، ولذهبت مواهبي الفطرية ضحايا أوضاعي غير الملائمة.

وبعدما نشرت مقالاتي وقصائدي قدم ذوقي للتأليف والتحقيق خطوة أخرى جريئة وعازمة جنبًا بجنب الشعر والكتابة، فقمت بتأليف خمسة كتب زمن دراستي؛ اثنان منها بالعربية، والثلاثة الباقية بالأردوية،وهي كما يلي:

1. قمت بشرح قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير بالعربية، وسميته بـ: "خير الزاد في شرح بانت سعاد"، وهو في 20 صفحة ذات حجم كبير، يستهل الشرح بمقدمة بالعربية في ثلاث صفحات، ذكرت فيها أخبار كعب بن زهير، وسبب القصيدة، وتقطيع الأبيات، هذا الشرح موجود لدي حتى الآن، وأعتبره خطوة أولى لي في مجال التأليف.

2. جمعت أخبار وأحداث العلماء السلف وأئمة العلم والفن تحت عناوين مختلفة، آخذًا من وفيات الأعيان وتذكرة الحفاظ وفهرست ابن النديم، وأعددت رسالة بالعربية باسم "مرآة العلم" في 54 صفحة بحجم متوسط، تنتهي هذه الرسالة على أبيات عن العلم وأصحابه في ست صفحات،توجد هذه الرسالة لدي كذلك.

3. بدأت سلسلة المقالات بعنوان "أئمة أربعة" (الأئمة الأربعة) في مجلة "قائد"، وبدأت هذا التحقيق آخذًا من وفيات الأعيان وتذكرة الحفاظ وتهذيب التهذيب وفهرست ابن النديم طبقًا لمستوى ذلك الوقت؛ فأولًا أخذت المجلد العاشر من تهذيب التهذيب من مكتبة الشيخ عبدالرحمن المباركبوري وانتفعت منه، انتهت هذه السلسلة على الإمام مالك لأسباب لا يعني هذا الموضع ذكرُها، ثم رتبتها في صورة كتاب بعد أيام، وهي كانت تشتمل على سير موجزة للأئمة الأربعة، ونسخها مركز تنظيم أهل سنت بلاهور حينما كنت مقيمًا بلاهور لأجل النشر في حين انقسمت البلاد الهندية في 1947م، وكنت في وطني، فبلغتني النسخة لإصلاحها، فقمت بالتصحيح، ورجعتها إلى عنوانها، ولكني لم أعرف ماذا حدث بعدهاوقد أبقيت نسخة منها، ولما ذهبت إلى مومبائ في 1368هـ، وزرت شركة سلطان بهندي بازار، فأعطيتها النسخة الثانية، ولكن مالكها قد هاجر إلى باكستان الشرقية (بنغلاديش حاليًّا) بعد أيام، فلم أعرف مصيرها إلى اليوم، كانت هذه المجموعة جامعة للسير، ولو أنها كانت موجزة في مائة وخمس وعشرين صفحة تقريبًا.

4. اخترت أخبار وأحداث الصحابيات (رضي الله عنهن) الممتعة والمفيدة من الاستيعاب والإصابة وأُسْد الغابة، ورتبت كتابًا باسم "الصالحات"، وأعطيته لملك دين محمد وأولاده تجار الكتب بالسوق الكشميرية (بلاهور)، فلا علمت عن نهاية الكتاب، ولا امتلكت نسخة أخرى له.

5. وفي الفترة نفسها أعددت كتابًا منظومًا باسم "أصحاب صفه" (أصحاب الصفة) مشتملًا على 225 بيتًا، وكان الأسلوب مولهًا مليئًا بالتكريم والاحترام؛ فقد جمع فيه أسماء

وأخبار أصحاب الصفة على طراز "شاهنامة إسلام" 1، ولما رآها الشيخ السيد فخر الدين أحمد أعجب به، وأصلح في مكان منه، ثم أرسله الشيخ سيد محمد ميان إلى الشيخ إعزاز علي لإعادة النظر فيه، فقام الشيخ إعزاز بإصلاحه، ورجع الكتاب إلي، ولما رجعت إلى الوطن ترجمت بعض الكتب لشركة شباب بومبائ (أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي) لنفس السنة (1359هـ)، وكذا أعطيتها "أصحاب صفه"، ولكنه لم يرَ النور، ولا أجد نسخته لدي، ولقد تأسفت عليه شديدًا،فقد كان عملًا جيدًا للغاية.

نماذج بدائية للمقالة والشعر: وقد سلف أني جعلت أكتب شيئًا ما منذ تعلمي اللغة الأردوية، ولما بدأت أتعلم العربية ازدادت رغبتي هذه، وفي تلك الفترة جاء الشيخ محمود الحسن مدير تحرير "مومن" الصادرة عن بدايون جاء مباركبور لتوسيع نطاق الاشتراك لمجلته، فلم أزل ألقاه وأكرر زيارته، فلما شهد رغبتي قال لي أن أكتب المقالات واعدًا بأنه سينشرها، فشجعني قوله هذا، وتعجلت بإعداد مقالتين وإرسالهما إليه، إحدى هاتين المقالتين كانت تعنون "مساوات"، وهي نشرت في عدد ديسمبر 1934م (1353هـ)، كانت هذه أولى مقالتي، فكتبت فيها:

"تحقيق المساواة بطريقة عادلة بين البشر ضروري إلى حد لا يمكن تنظيم دولة بدونها، ولن تزدهر بغيرها أمة من أمم العالم؛فالدين أو القانون الذي يفرغ من المساواة يكون غير تام إلى حد بعيد، وهكذا الجماعة أو المجتمع الذي يفشل في تحقيق العدالة التامة بين أعضائه يجب فناؤه من صفحات العالم اليوم أو غدًا، فالشيء الذي يسير كل نظام أو مجتمع هو المساواة حقًّا، ولا نجد اليوم قومًا من أقوام العالم أو دينًا من أديانه لا يدعي بتحقيق المساواة، إلا أنه لما يقوم رجل عادل بامتحانه وتفحيصه فلا ينجح في هذا الامتحان سوى دين الإسلام، وهذا هو الواقع أن الإسلام قد أقام المساواة في هذا العالم في حين كان العالم كله محاطًا به من حب الظهور والإعجاب بالنفس، يشهر أن الإسلام قد جاء لكي يمحو الوثنية من العالم، ولا شك أنه قد محا عبادة الأوثان المصنوعة من العالم، ولكنه كذلك محا أوثان الكبرياء، فالعرب الذين كانوا غارقين في الافتخار بالشرف العرقي والقَبَلي كما كانوا يعبدون الأوثان والأصنام التي صنعتها أيديهم ذاتها، وكانوا يظلمون الضعفاء والبائسين، فلما جاء الإسلام أزال هذه اللعنة من وجوه العرب، وأنعم على الفقراء، واعتنى بالموالي، الأمر الذي أوجد في العرب قوة اجتماعية سيطروا بها على العالم كله في وقت قليل للغاية، وأصبح

[1] "شاهنامة إسلام" ملحمة الإسلام لصاحبها حفيظ الجالندهري (ت 1912م)، وهي باللغة الأردوية، وكتبها الشاعر على طراز "شاهنامة" لفردوسي الشاعر الفارسي الشهير.

الإسلام دينًا عالميًّا في مدة غير طويلة، هذه حقيقة تاريخية لن تنكر عن انتشار الإسلام وإذاعته، ولكنكم إذا تفكرتم قليلًا اتضح لكم أن المساواة هي التي لعبت دورًا رياديًّا في ازدهار المسلمين المغتبط؛ ولذا فلم يغفل عنها الإسلام في حال من الأحوال في عصر من عصوره، ونجد الكتب الإسلامية في عصرنا مليئة بهذه الفكرة الأساسية الطاهرة، وأن كل بند من بنوده، وحكم من أحكامه توجد فيه المساواة التامة، فلا تجد شعبة من شعبه أو قسمًا من أقسامه إلا وقد اعتني فيه بهذا الجانب المهم".

ومنذ دراستي للغة الأردوية نمى في ذوق الشعر، وكنت آنذاك ابن 13 سنة أو أكثر، ولم أتلمذ لشاعر ما في مجال الشعر كعادتي في الكتابة، فهداني ذوقي في هذا المجال كذلك، وتقدمت واثقًا بنفسي، فخضت فيه خوضًا، وكانت المشاغل مثل قراءة الكتب غير الدراسية بجانب قراءة الكتب الدراسية، وكتابة المقالات وقرض الشعر تجري جنبًا بجنب، وزد عليها أعمال وخدمات البيت، فكنت أقرض منظومات ملية وقومية وسياسية ودينية في جلساتها كل يوم، وفي تلك الفترة عزموا على التبرع العام للمسجد الجامع الجاري بناؤه، وكان الناس متحمسين للغاية، فكنت أقرض حتى خمس منظومات في يوم واحد، فقد بلغت من الشعر غاية الهيام والجنون، وكانت الأبيات تتدفق من داخلي تدفق الماء من العين، وفي بعض الأحيان كان الجمهور يحيط بي، ويطلب مني قرض المنظومة عفو الخاطر؛ لأنهم قد عزموا على زيارة أحد المخيرين، فكنت أسرع لهم القريض، وكانوا ينشدونها، فكأن الروبيات تنزل نزول المطر من السماء، وكان الشيخ شكر الله يشجعني أمام الجماهير ويطريني، فذات مرة أرسلني إلى حكيم في دكانه، فأعطاني الحكيم معجونًا يقوي ذهني وذاكرتي، فعدت به إلى الشيخ، فأوصاني بتناوله في الصباح وفي المساء، وبين لي أنه يزيدني قوة في الحافظة، فقلت له: إني لا أشعر بضعف في قوة حفظي، فرجعته إليه،وفي تلك الفترة نشرت بعض غزلياتي ومنظوماتي، فأول منظومتي نشرت هي "مسلم كي دعا" (دعاء المسلم) في مجلة "الفرقان" (عدد جمادى الثانية 1357هـ).

ولقد قرضت منظومات لا تحصى عن التبرع لبناء المسجد الجامع، فجمعت كلها بعنون "أذان كعبه"، فلنقرأ بعض أبيات منظومة من هذا النوع:

نظر جب (جب)1 اٹھائي جا رهي هے

جهلك كعبه كي پائي جا رهي هے1

---

[1] زدتها من عندي لاستقامة الوزن.

نظر میں نور پیدا ہورہا ہے	یہ دل شاد تمنا ہورہا ہے
زمیں پر عام چرچا ہورہا ہے	فلك پر شور برپا ہورہا ہے

كوئي مسجد بنائي جا رهي هے [2]

بناؤ جامع مسجد بناؤ	بڑھاؤ دين كي شوكت بڑھاؤ
كماؤ دولت عقبى كماؤ	بلاؤ روح حاتم كو بلاؤ

[1] ترجمة: كلما نرفع أنظارنا نجد لمحة عن الكعبة.

[2] ترجمة: وأن البصر يجد نورًا جديدًا، وأن القلب يفرح بما قد تمنّى، وأن الأرض يعلن فيها، وأن السماء تضجّ بأن مسجدًا يتم بناؤه.

يہاں همت دكهائي جا رهي هے[1]

مسلماں! سن ذرا گوش صفا سے	مسلماں! كام لے جود وسخا سے
مسلماں! جوڑ رشته مصطفى سے	مسلماں! تيرے مذهب سے خدا سے

محبت آزمائي جا رهي هے[2]

تعالى الله يه پر نور مسجد	حقيقت ميں هے رشك حور مسجد
هي نگه خاص كي منظور مسجد	سدا اطهر! رهے معمور مسجد

بهت بہتر بنائي جا رهي هے[3]

ولقد كتب ابن رشيق في باب "من رفعه الشعر ومن وضعه" لكتابه "كتاب العمدة" عن شعراء علا ذكرهم أو أخمل بسبب شعرهم، فقد أعان شعري الفطري في رفع ذكري كثيرًا؛ فكانت منظوماتي وقصائدي تنشر بكثرة في جريدة "زمزم" بلاهور وجريدة "مسلمان" (كوثر فيما بعد)، واشتهرت كشاعر إسلامي، وهذه هي السمعة التي بلغتني مركز أهل سنت بأمرتسر، وجريدة "زمزم" بلاهور، وهذه هي التي تسببت في وصولي إلى ممبائ، وهكذا فقد أفادتني شاعريتي كثيرًا، ولكن اليوم لا علاقة لي بها، فلا أدري هل بنتها، أو دلتني هي على طريق سوي ثم غادرتني.

والقريض في العادة لا يفيد الدارس خلال فترة الدراسة، ولكنه لو مارسه الدارس بأسلوب متزن مقتصد، لاستحسن وأفاد؛ فإنه يصقل الذهن والفكر.

دراسة الأدب العربي: ولقد تعلمت العربية على أساتذة منحدرين من أربع قصبات في مدرسة لها منهاج دراسي قديم من مقرراتها اللغة العربية وآدابها،وتدرس في مثل هذه المدارس الكتب القديمة للشعر والأدب بطريقة قديمة؛ لأن لغة الكتاب والسنة هي اللغة العربية القديمة، والمدارس العربية في الهند تهدف إلى تعليم الكتاب والسنة مباشرة بالعربية، ولكن هذا المنهاج

[1] ترجمة: قوموا ببناء المسجد الجامع قوموا، وزيدوا شوكة الدين زيدوا، واكتسبوا بثروة الآخرة اكتسبوا، وفاخروا روح حاتم فاخروا؛ فالناس كلهم يتجرّؤون.

[2] ترجمة: أيها المسلمون، أنصتوا لما تقول صفا، وقوموا بالجود والسخاء، واتصلوا برباط المصطفى، وبرباط الدين، والله فهذا امتحان محبتكم.

[3] ترجمة: تعالى الله، هذا مسجد فيه نور، ولا شك أنه مما تغتبط به الحور، وأنه بني بعناية خاصة، عمّر الله هذا المسجد للأبد، إنه يبنى جميلًا وجذابًا.

الدراسي قد خلق كتابًا كبارًا في الهند، تعتبر مؤلفاتهم ذات مستوى عالٍ؛ نظرًا لحواشيها وشروحها لكتب العربية وآدابها.

ذوقي للعربية نتيجة القراءة لمقامات الحريري وديوان الحماسة وديوان المتنبي والسبع المعلقات ودراسة كتب اللغة والأدب،ففي 1355هـ كتبت شرحًا عربيًّا لقصيدة "بانت سعاد"، فكتبت مقدمتها كما يلي:

"الحمد لله الذي أسبغ علينا من النعم، وجعل في لسان العرب من اللطائف والحكم، والصلاة والسلام على حبيبه نبينا المكرم، المبعوث إلى كافة الأمم، وعلى آله وأصحابه الذين هم مصابيح الظُّلَم، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم،أما بعد: فيقول العبد الأحقر القاضي عبدالحفيظ محمد أطهر المباركفوري: إني أردت أن أشرح قصيدة "بانت سعاد"، التي طارت شهرتها في أطراف العالم والأبعاد، لكعب بن زهير بن أبي سلمى ﷺ، ووفقني الله في منتصف شوال المكرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بعد الألف فشرحتها كيفما قدرت، طاويًا كشح القيل والقال؛ لئلا يوجب الملال والاختصار؛ لئلا يكون سببًا للكلال، وسميته "خير الزاد في شرح بانت سعاد"، وهذا أول جولان يراعي في ميدان القرطاس وأنا غمر جاهل من مثل هذا الشأن، فإنه ما اغبر مذ نيطت عني التمائم ونيطت بي العمائم إلا برهة من الزمان، وأنا معترف بعجزي وألتمس من السادة الكرام، أن يصفحوا عن زلاتي، ويعرضوا عن أن يأخذوني عرضة للملامة، والمسؤول من الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، ومنه التوفيق والعصمة، ومنه الاستعانة في كل أمر".

الميول الطبيعية: ولعل فترتي الدراسية كلها مضت في عسر وبؤس، فقد فضلت القناعة والبساطة في الطعام واللباس، فلم يكن رخاء العيش ورغدته، في تلك الأيام، كما نجده اليوم؛ فقد كان الناس عادة متعودين على الخشونة والبساطة في الشؤون الاجتماعية، فلم يكونوا يشعرون بالبؤس والعسر، بل كانوا كلهم مقتنعين بما هم فيه، وراضين عما وفقوا له، كما كانت حياتهم هذه ذات خير وبركة، وأما أنا فقد كنت أوفر ما أحتاج إليه حسب ذوقي وميلي، ولم أشعر في وقت من الأوقات بأنني أدنى منزلة.

فقد كنت ألبس، عادة، القميص والإزار الأبيضين المصنوعين من القماش الخشن الغليظ، ولم أكن ألبس الشيرواني إلا قليلًا، ولكني كنت أواري القميص بالصدرية، وأما الكوفية فكانت مثل القارب مصنوعة من قماش غالٍ، وكانت أحذيتي ثمينة بالمقارنة لذلك العصر، وكنت أحمل قارورة العطر في جيبي دائمًا، وكنت أغسل الملابس بيدي،ولم أترك هذه العادة

حتى الآن، ولكني أشعر بأن هذه الغاية من البساطة لا تستحسن، بل تضر في بعض الأحيان، وتنبئ عن البخل وتسبب الحقارة.

طلاب المدرسة الذين كانوا يأتون عادة من القصبية وضواحيها من القرى المجاورة كانوا يجتمعون لدى مصلى العيد بعد العصر، وهو مكان واسع في شماله غدير كبير لسمُودِي (Samūdī)[1]، وفي الجزء الخلفي سلسلة أشجار النيم، وفي جنوبه ميدان لا حد له، وفي ضواحيه زرع أخضر يخلب اللب،كان هذا كله يقدم مشهدًا جذابًا ساحرًا كأن كنار آب ركن آباد" و"گلگشت مصلى" المذكورين في غزلية حافظ الشيرازي[2] قد قدما هنا، وفي نفس هذه الفترة كتبت منظومة بعنوان "برسات كي چاندني رات " (الليلة المقمرة في موسم المطر) جاء فيها الشعر التالي:

دور كچھ ياں سے سمودي كے كنارے آم پر	اک پپیہا دے رها تها جاں پیا کے نام پر

ترجمة: كانت زلماء تنتحر لأجل حبيبها البعيد من هنا، وهي على شجرة للمانجو على ساحل من سواحل سمودي.

وبعد صلاة العشاء كنت أنشغل بقراءة الكتب الدراسية التي كانت أربعة في العادة، وكنت أحاول أن أحل بالليل ما استصعب من الدروس التي سوف يتم تدريسها في اليوم القادم، ثم كنت أخوض في قراءة الكتب غير الدراسية وكتابة المقالات وقرض الأبيات وبعدما كنت أفرغ منها أقصد السرير من حيث لا أغفل عن قراءة كتاب من الكتب غير الدراسية، أو قرض منظومة من المنظومات والقصائد.

وبجانب الأنشطة العلمية والتعليمية فقد بلغ بي علو الهمة والعزيمة والاعتصامية ذروة الكمال، ولكني لم أكن أغفل عن تكريم الكبار واحترامهم غير متجاوزٍ الحدود فيها، ففي بعض الأحيان كان أغنياء القصبة وأثرياؤهم يدعون الطلاب وشيوخهم، فكنت أحتال كيلا أحضرها، وأقتنع بما وفر لي من الخبز الجاف.

---

[1] اسم غدير أصله الشيخ محمود، فبدّلت الشين بالسين، وحذفت "خ+مح" في العامية، وزيدت الياء للنسبة.

[2] هذه التلميحات أخذت مما يلي من شعر حافظ الشيرازي (ت792هـ):

بده ساقي مئے باقي كه در جنت نخواهي يافت	كنار آب ركن آباد وگلگشت مصلا را

ترجمة: أيها الساقي، ناولني ما بقي من الخمر بساحل "ركن آباد" و"گلگشت مصلا"؛ لأنك لا تجدها في الجنة.

ولما ذهبت إلى مراد آباد كنت مضطرًّا أن أحمل طعامي من بيت من البيوتات، وفعلت هذا لبضعة أيام مختفيًا عن أعين الناس، مجبرًا نفسي على هذا، ثم أخذت منحة من المدرسة قدرها روبيتان ونصف، وهكذا نجوت من هذا الذل والهوان، وبدأت أتناول الطعام في فندق، فوجبة منها كانت تكلفني ست بيسات، ولم أصرف إلا ستين روبية، على الأكثر، أخذتها من داري حين إقامتي بمراد آباد، وهكذا فقد فرغت من نيل العلوم والفنون، ولم أصرف إلا قليلًا.

ولقد أفادني كثيرًا في حياتي المستقبلية القناعةُ والبساطةُ ومعرفةُ الذات وقلةُ الاختلاط بالناس، وهذا من فضلها أني لم أختلط بأهالي مومباىٔ، ولو أني أقمت بها لمدة غير قصيرة، ولقد رددت العديد من الهدايا والمناصب السامية التي قدموها لي بكل احترام وتقدير، وكرهت التملق، ولم تذهب ضحية سحرها وثروتها الطبيعة التي رُبيتُ عليها في رحاب المدرسة، والحمد لله على أني قد لزمت حجرة ضيقة في هذه المدينة، وقمت بأعمال لا يقام بها إلا برواتب عالية في معاهد التأليف والتحقيق، ومن ثم يكتسب بها.

ما اكتسبت من مؤلفاتي، ولا أخذت أجرة على تأليفها، ولا قمت بالكتابة لهذا الغرض، بل كل ما كتبت قمت به تحت عاطفة خدمة العلم ونشره، ومن ثم أعطيتها للناشرين لكي يعمموا نفعها.

وأول زيارتي لدلهي كانت حين إقامتي بمراد آباد، فوفقت الذهاب إلى ندوة المصنفين، ولقيت مديرها الشيخ المفتي عتيق الرحمن العثماني، وكان يرافقني صاحبي الشيخ عثمان، وفي هذه المرة أيضًا عرف بي الشيخ عثمان بأسلوب ملؤه المبالغة والإطراء، فقال لي المفتي المرحوم أن أكتب المقالات لمجلته "برهان"، وقد خطر ببالي توًّا أن مقالاتي لا تبلغ مستوى هذه المجلة، ولكن بفضل الله العلي الكبير أن المفتي المرحوم قد نشر ثمانية، كتب لي من هذا المجمع في صورة جيد، والآن جاء دور إدارة التحرير الشرف لمجلته الغراء.

ولقد شغفت حبًّا بالكتب التي طبعت على الأحرف الحديدية، فكنت أكثر شراءها، وكنت أغتبط بنشر الكتب عليها، وآمل أن تنشر مؤلفاتي فيها، ومن ثم كان يطرق بعقلي وذهني أني رجل لا ظهير لي ولا ناصر، فهذه الأمنية ليست لي سوى أضغاث أحلام، ولكنها أيضًا تحققت بفضل الله؛ فقد طبعت ثلاثة كتب لي من كل من مومباىٔ والقاهرة على هذه الأحرف، كما نشرت ترجمة كتابي الأردويين من القاهرة والرياض.

كنت أهتم بالسنن والنوافل كثيرًا في طفولتي، وكانت معظم أحلامي صادقة وكنت أحب بيان أسماء الناس بعد رؤية وجوههم، وكان ظني هذا يصدق تسعين بالمائة، إلا أني لم أخض في الدعاء والتميمة، ولكني كنت أقرأ في هذه الفترة الكتب مثل "أعمال قرآني" و"تعويذ سليماني" و"نقش سليماني" و"حرز سليماني"، وكنت أشهد كرامات أخيلتي وأفكاري، فإن واصلت السير على هذا الطريق كان من الممكن أن أصبح صوفيًّا زاهدًا معروفًا، وهذا هو السبب في أني أتذوق الإحسان والتصوف فكريًّا حتى الآن، ولو أني بعيد عنه فعلًا، وأحب التصوف الحقيقي، وأكرم الصوفية الصالحين، وأمتع نفسي كثيرًا بقراءة تراجم وسير المشايخ والرجال الصالحين.

لما نمى في ذوق الشعر بالغت فيه حتى جعلت أكتب المنظومات والقصائد في المنام، فلو بقيت هذه الحال لأصبحت شاعرًا فحلًا، وأما التعليم والتدريس فقد بدأت سلسلته منذ دراستي، وأردت أن أقضي حياتي فيه، فإن كان جو المدرسة صافيًا فهذه حياة هادئة مباركة، ولو قبلني أصحاب المدرسة لأصبحت مدرسًا ناجحًا، ولكني على الرغم من ذلك واصلت هذه السلسلة بطريقة أو أخرى، إلا أن هذه الميول غلبها طابعُ البحث والتحقيق من حيث إني مع قضاء حياتي كلها في الشغل الحقير كالصحافة (سوى الفترة البدائية القصيرة التي قضيتها في مجال التدريس) لم أحبذ أن أصبح صحفيًّا أو مراسلًا للصحافة، بل جعلتها سببًا من أسباب المعاش فقط، وشغلت نفسي بالبحث والتحقيق، وأديت وحدي ما استطعت أن أوديه من خدمات العلم والفن.